



ترجمات RCD

التحضر.. الرابط المجتمعي الخفي

تأليف
باري براونستين

ترجمة
علي الحارس



تنويه
ان كل الاراء الواردة في هذا المقال تعبر عن رأي كاتبها

نبذة عن مركز الرافدين للحوار

يُعدُّ مركزُ الرافدين للحوار RCD من المراكز النوعية في العراق التي تجمعُ على منبرها النخب السياسية والاقتصادية والأكاديمية الناشطة في تداول الافكار البناءة، فهو مركز فكري مستقل (THINK TANK)، يعمل على تشجيع الحوارات في الشؤون السياسية والثقافية والاقتصادية بين النخب كافة؛ لتعزيز التجربة الديمقراطية، وتحقيق السلم المجتمعي، ورفد مؤسسات الدولة والمجتمع بالخبرات والرؤى الاستراتيجية؛ ابتغاء تفعيل دورها والارتقاء بأدائها. ويمثل المركز فضاءً حراً يتسم بالموضوعية والحياد ويوظف مخرجاته لمساعدة صناع القرار وتوجيه الرأي العام نحو بناء دولة المؤسسات.

تأسس المركز في الاول من شباط (فبراير) 2014 في مدينة النجف الأشرف على شكل مجموعة افتراضية في الفضاء الالكتروني تضم عددا من السياسيين والأكاديميين ورجال الدولة التنفيذيين والقضاة والدبلوماسيين ورجال الدين، وقد تطورت الفكرة لاحقاً، ليتم إكسابها الصفة القانونية عن طريق تسجيل المركز في دائرة المنظمات غير الحكومية NGO التابعة للأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي.

يضم «مركز الرافدين للحوار RCD» اليوم كمشاركين في برامجه وفعالياته ونشاطاته أكثر من خمسة الاف عضو عراقي وعربي واوربي واسيوي من التوجهات السياسية والاختصاصات الأكاديمية كافة، اتفق فيه الجميع على اعتماد الحوار ركيزة أساسية لمواجهة المشكلات، وإنتاج حلول استراتيجية، تتناغم ورؤية المركز في بناء شرق اوسط جديد ومختلف ينطلق من عراقٍ مزدهر. كما يعمل في اروقة المركز وضمن كوادره المتقدمة أكثر من 70 شخصاً فاعلاً ومن مختلف الاختصاصات قد توزعوا ما بين مجلس الادارة وهيأة المستشارين والباحثين وزملاء المركز والكادر الاداري فهم يتنافسون فيما بينهم من اجل تقديم النتائج العلمية والثقافية والرؤى السياسية والاجتماعية والاقتصادية الرصينة التي تخدم الوطن والمواطن.

لم يكتفِ المركز بالتواصل الالكتروني، بل أقام مجموعة من النشاطات على أرض الواقع شملت عدداً من الندوات والمؤتمرات وورش العمل والجلسات الحوارية التخصصية والملتقيات السنوية وفي مجالات متعددة، كما عمد المركز الى الاهتمام بالنتائج العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تصدر في قارتي اوريا واسيا حاملاً على عاتقه ترجمتها الى اللغة العربية للاستفادة منها، فضلاً عن طباعة الكتب المؤلفة ذات الصلة بالواقع السياسي والثقافي والاقتصادي والامني، كما شرع بنشر سلسلة الاطاريح والرسائل الجامعية التي تعنى بالأمور التي تخدم الصالح العام فقد تمت طباعة مجموعة منها، كما اعد المركز مجموعة من استطلاعات الرأي الميدانية الى غير ذلك فضلاً عن اصداره مجلة علمية محكمة تضم بين طياتها مجموعة من الابحاث والمقالات العلمية والثقافية تحت مسمى مجلة (رواقات).

فيما يعد ملتقى الرافدين (RCD-FOURM) معلماً بارزاً ضمن انشطة المركز والذي يعد الاول من نوعه في العراق، والاكثر سعةً وتنظيماً، ويهدف الى اثراء الحوار بين صناع القرار والخبراء في القضايا التي تهم البلد والشرق الاوسط، وتعزيز النقاشات بشأنها، وتبادل الخبرات وابرام الاتفاقيات ومذكرات التفاهم وآليات التعاون.

ترجمات RCD

التحضّر.. الرابط المجتمعي الخفي

تأليف
باري براونستين

أستاذ متمرس في علم الاقتصاد، جامعة بالتيكور الأمريكية

المعهد الأمريكي للأبحاث الاقتصادية (AIER)

13 نيسان/أبريل 2026

Civility: The Invisible Glue of Society

By: Barry Brownstein

American Institute for Economic Research (AIER)

April 13, 2026

ترجمة
علي الحارس

لم يمرّ قطّ زمن يماثل زمننا الحالي في عدد الذين يمتلكون "مبرّر" التصرف بفضاظة في المطارات؛ ففي الإغلاق الحكومي الأخير الذي طال (إدارة أمن النقل TSA)، شهدت بعض المطارات طوابير طويلة للتفتيش وصلت في بعض الأحيان إلى فترة انتظار تجاوزت ست ساعات بحسب أحد التقارير، كما حدث في (مطار هارتسفيلد-جاكسون Hartsfield-Jackson Airport) في مدينة (أتلنطا Atlanta)، و(مطار جورج بوش الدولي George Bush Intercontinental Airport) في مدينة (هيوستن Houston).

وفي تلك الفترة سافرت مع زوجتي جوّاً عائداً إلى بيتي، وتوجّب علينا المرور بالمطار المذكور في أتلنطا، واستفدتُ من دردشة تُحدّث باستمرار على منصّة (ريديت Reddit) في العثور على أسرع طابور للتفتيش، فلم نواجه تأخيراً يشبه بأيّ شكل من الأشكال تأخير الساعات الست الذي تحدّث عنه التقارير. ومع أنّ ملامح السعادة غابت عن وجوه كلّ من كان في ذلك الطابور، فلقد تقبّلوا المحنة بقدر من التحصّر وعدم الاكتراث.

يُعرّف مطار هارتسفيلد-جاكسون في أتلنطا بأنّه أكثر المطارات ازدحاماً على مستوى العالم، فهو يتعامل مع ما يقرب من (٣٠٠,٠٠٠) مسافر يومياً، وهو ما لا يمكن فعله إلّا باعتماد مزيج إعجازي من التعاون والتخصّص، ممّا يجعل معظم الرحلات القادمة والمغادرة، والتي يزيد عددها عن الألفين، تلتزم بمواعيدها المحدّدة. وبينما ينتظر المسافر رحلته في المطار، يجد أمامه مجموعة واسعة من خيارات الطعام، فيتناول وجبته وهو يستطلع وجوه المسافرين الذين يسلكون مساراتهم التي اتّخذوها بمحض إرادتهم، دون الحاجة إلى التدافع والتصادم.

إنّ (التحصّر) هو النظام الذي كان يحكم مسار الأحداث في ذلك المطار حينها؛ فعلى الرغم من الصعوبات التي اكتنفت نشاط العاملين، لم يحاول تجاوز الطابور سوى بعض الأجلاف، وتصرّف بعض آخر وكأنّ لهم امتيازاً يمنحهم معاملة تفضيلية.

لقد شرح الاقتصادي (فريدريك هايك Friedrich Hayek) كيفية عمل المجتمع السليم عندما يخضع الفرد "لانضباط القواعد المجرّدة"؛ فهذه القواعد، والتي ربّما لا يمكننا حتّى التعبير عنها بالسنتنا، تنشئ بيئة يمكن فيها للناس أن يصوغوا التوقّعات ويتعاونوا مع غيرهم. والاعتماد على القواعد المجرّدة يحدث حتّى عند اللقاء بالغرباء؛ فلقد استكشف هايك ما يحدث حين يسافر المرء إلى جزء آخر من بلاده نفسها، فعلى الرغم من أنّه سيلتقي بأناس لم يسبق له رؤيتهم، فإنّ "أنماط سلوكهم وقيمهم الأخلاقية والجمالية" ستكون مألوفة عنده.

و(التحضر) من مرتكزات الحرية؛ ولقد حذر هايك من أن "الإجبار ربّما لا يمكن تقليصه إلى حدّه الأدنى إلّا في مجتمع أدّت فيه العادات والتقاليد إلى جعل السلوك قابلاً للتوقع إلى حدّ بعيد". أمّا في المجتمعات التوتاليتارية، فإنّها تقبل (النظام) باعتباره نتيجة "لترتيبات مقصودة"، وأنّه "لا بدّ أن يستند إلى علاقةٍ قوامها القيادة والطاعة".

والمجتمع العصبوي لا تغيب عنه أعراف الصدق والاحترام، ولكنّها لا تنطبق إلّا على من ينتمون إلى العصبية نفسها؛ فمن دون الإجبار لا يمكن للناس أن يحافظوا على التحضر طويلاً بينما يقفون مع غرباء لست ساعات في طابور التفتيش بأحد المطارات. وبينما نشهد حالياً تفاقم (العصبوية السياسية)، تتقلّص بالتزامن مع ذلك أعراف الاحترام المتبادل التي ما كانت الحياة لتكون ممكنةً لولاها؛ فالنظر إلى الآخرين باعتبارهم (أدوات لتنفيذ غاياتنا) يحلّ محلّ ذهنية النظر إليهم باعتبارهم (أشخاصاً حقيقيين لا يختلفون عنّا).

ما الذي سيحدث لأمريكا مع استفحال (عصبوية "نحن وهم")؟ تشير إحدى استطلاعات الرأي إلى أن (٨٠٪) من طلبة الجامعات لا يقبلون السكن في الغرفة نفسها مع طالب أعطى صوته لمرشّح مختلف.

إنّ أزمة التحضر هي أزمة حرّية؛ وهنا يبرز السؤال: هل سنواجه أزمة تحضر في المستقبل القريب؟

لقد فهم آدم سميث جوهر القضية قبل مئتين وخمسين عاماً؛ إذ افتتح كتابه (نظرية المشاعر الأخلاقية) بانتقاده لبعض الآراء المتعلّقة بالطبيعة البشرية؛ إذ جاء في كتابه هذا أنّه مهما بلغ مستوى الأنانية الذي نفترضه عند الناس، فإنّ هنالك مبادئ في الطبيعة البشرية تجعل المرء "يهتمّ برفاهية الآخرين، وتجعل سعادتهم ضرورية له، وإن كان لا يحصل منها على أيّ شيء سوى متعة مشاهدتها".

ولتفعيل (التقمّص العاطفي) لا بدّ من الاستعداد المنضبط لرؤية العالم من منظور آخر لا ينطلق من اهتماماتنا الخاصّة؛ وكانت الآلية التي اعتمدها سميث لذلك هي "المراقب المحايد"، أي: ذلك القاضي الداخلي الذي يمكن التعوّد على الاحتكام إليه، والذي يقيّم سلوكنا من موقع المراقب المحايد، وليس وفقاً لمصالحنا الخاصّة؛ حيث يقول: "لا يمكننا النظر إلى مشاعرنا ودوافعنا، ولا يمكننا تقييمها، إلّا إذا تجرّدنا، إذا صحّ التعبير، عن حالتنا الطبيعية وسعينا إلى النظر إليها من بُعد".

وللمحافظة على الحرّية، لا بدّ من أن يفعل (التحضر) فعله ضمّنيّاً؛ ولقد فهم سميث المخاطر التي قد تنشأ إذا لم يحدث ذلك، لأنّ "المجتمع لا يمكنه الاستمرار إذا كان فيه أشخاص مستعدّون دوماً

للإضرار بعضهم ببعض"، وحاجج بأنّ "العدل [أي: عدم الإضرار بالآخرين] هو العمود الرئيسي الذي يقوم عليه الصرح بأكمله"، وإذا وقع هذا العمود انهار معه "النسيج العظيم الهائل للمجتمع البشري" وتحول "فوراً إلى غبار". ولكنّ العدل لا يولد من تلقاء نفسه، بل يعتمد على عادات الاحترام المتبادل، والذي ينتج استجابات آلية نحو الغرباء تحمل في طياتها الحد الأدنى على الأقلّ من الاحترام الذي تتطلبه الحياة المجتمعية.

ولقد كان سميث يعتقد بأنّ الحضارة تتقدّم أو تتأخّر وفقاً للالتزامنا بهذه العادات واستعدادنا لترويض ما دعاه "التقسيم العظيم لميولنا"، أي: الجانب الأناني الذي يعمد دائماً، إذ لم يُكبح، إلى التعامل مع الآخرين على أنّهم كومبارس في فيلم يروي قصّة حياة شخص بعينه.

وبالعودة إلى ما حدث في المطار يومها، كان الأشخاص الذين يعتقدون بأنّهم أهمّ من غيرهم يكادون لا يخرجون عن كونهم أعضاء في الكونغرس.

(التحضّر) ليس تأدّباً

يميل الكثير منّا إلى الخلط بين (التأدّب) و(التحضّر) وكأنّهما بمعنى واحد، لكنّ (ألكزاندر هادسون Alexandra Hudson)، مؤلّفة كتاب (روح التحضّر)، تعرض لنا التكلفة التي نتكبّدها جرّاء هذا الخلط، وذلك من خلال رسم حدّ واضح بينهما؛ فالتحضّر أعمق من التأدّب، وتستند هادسون إلى كتابات الفيلسوف (مارتين بوبر Martin Buber) في اعتبار التحضّر ميلاً للنظر إلى الآخرين على أنّهم يستحقّون الاحترام في الأصل، إذ إنّ التأدّب هو "الشكل، والأسلوب، المتّبع في فعل ما، أمّا التحضّر فهو أكثر من ذلك"، فمن دون الميل الباطني المذكور يصبح التأدّب مجرد أداء، وبوجوده يمكن حتّى للكلام والفعل العادي أن يتّصف بتحضّر حقيقي.

وترينا استطلاعات الرأي أنّ (٨٠٪) من الطلبة الجامعيين يمارسون الرقابة الذاتية خوفاً من إهانة الآخرين؛ لكنّ الحرّية لا تُصان على يد أشخاص يسعون إلى التلاؤم. والتحضّر، لا التوافق، هو ما يدين به أحدنا للآخر في مجتمع مشترك؛ فمن خلالها نقرّ بأنّ الشخص المقابل لنا (في طابور التفتيش في المطار، أو في قسم التعليقات ضمن إحدى منصّات التواصل المجتمعي، أو في قاعة اجتماعات) هو إنسان أصيل، وليس عقبة، أو دون أهمّية، أو مجرد وسيلة لتحقيق غاياتنا.

وإذا أخفقنا في جعل هذا الإقرار من عاداتنا اليومية، فعندها سنكشف عن أمر فهمه آدم سميث قبل مئتين وخمسين عاماً، وهو أنّ النسيج الاجتماعي أكثر هشاشة بكثير ممّا نتخيّل، وأنّه قد يتمزّق إذا لم

نجدد للحفاظ عليه يوميًا؛ وهذا ما أوضحته هرسون عندما قالت بأن التحضر "يعزز الحرية المجتمعية والاقتصادية من خلال تقوية قدرتنا على ضبط التعبير عن غرائزنا البدائية المتمركزة حول الذات، وذلك عوضًا عن اللجوء إلى قوى خارجية، كتفويض الحكومة، في هذا الضبط".

وتتمثل عادات (الانضباط الذاتي) بما نمارسه من أفعال يومية بسيطة كالمراعاة والصبر والاحترام المتبادل. وينشأ الاستبداد والتوتالياتارية عندما يضعف الانضباط الذاتي وتحلّ (الطاعة) محلّه. وقد حدّدت هرسون جذر المشكلة بدقة، وهو أنّ "تضخم حبّ الذات لدى البشر ما يزال الخطر الأبرز في وجه الوفاق المجتمعي حاليًا"؛ أمّا الترياق الناجع ضدّ حبّ الذات فليس فرض الضوابط التنظيمية، بل هو التحضر الذي "يخفّف حبّ الذات لدينا من منطلق احترام الآخرين، ويؤدّي أيضًا إلى ازدهار الطبائع المجتمعية عند الناس".

يمكننا أن نقف في طابور التفتيش في المطار ونحن نتأفّف من المسافر الذي يقف أمامنا وهو يجهد في العثور على بطاقة الصعود إلى الطائرة، لكنّ هذا التأفّف، وعلى الرغم من الأداء المهدّب الخارجي الذي قد نتكلّفه، يكشف للآخرين بوضوح أنّنا نعتبر هذا المسافر عقبة في طريقنا. وأمّا البديل عن هذا السلوك فهو الاعتراف بأنّه ربّما ليس لا يقلّ عنّا شعورًا بالإرهاق، وأنّه قد لا يختلف عنّا في النظر إلى الآخرين على أنّهم هم المشكلة. ويمكننا هنا أن ننظر للقضية من بعد، بحسب تعبير سميث، وحينها سيصعب علينا تبرير شعورنا بالاستياء، ولن يكون من السهل بعدها أن نتجاهل التماثل بيننا وبين هذا المسافر في الانتماء إلى البشرية.

إنّ التحضر يتقوّى بهذه التجارب اليومية الصغيرة، ومعها تتجدّد الدماء في شرايين الحرية.



www.alrafidaincenter.com



009647826222246



[alrafidaincent](https://twitter.com/alrafidaincent)



[alrafidaincenter.com](https://www.facebook.com/alrafidaincenter.com)



[alrafidaincent](https://www.telegram.com/alrafidaincent)



ص . ب . 252



info@alrafidaincenter.com



مركز الرافدين للحوار RCD



العراق - النجف الاشرف - حي الحوراء - امتداد شارع الاسكان
العراق - بغداد - الجادرية - قرب تقاطع ساحة الحرية